المحاضرة الرابعة

الإتجاه العقلاني: ديكارت(1): المنهج.

يعتبر" **رينيه. ديكارت**" ***René Descartes*** [1596–1650] أبا الفلسفة الحديثة، ومؤسساً للاتجاه العقلاني، لأنّه المسؤول – حسب النقاد– عن شكل وأسلوب، ومن ثم عن محتوى الفلسفة الحديثة أولاً في فرنسا، ثم في إنجلترا وألمانيا، رغم أنّ سابقين عنه كان لهم تأثير في الفلسفة الحديثة. و يرجع ذلك أولاً، إلى الأدلّة التي قدمها "ديكارت "عن وجودنا الخاص ووجود الله، وثانياً، عن تمييزه بين الجوهر المادي والجوهر الفكري ..(24).

ديكارت والمنهج: يذكر ديكارت في عمله " مقال عن المنهج" أنّه درس في مدرسة من أشهر المدارس في أوربا، وهي مدرسة لافلاش الملكية التي أسسها اليسوعيون، وكان عظيم التقدير للبلاغة، ومولعاً بالشعر، كما أعجب بالرياضيات على الخصوص. أمّا الفلسفة فكان أساتذتها من خيرة العقلاء لكن ليس فيها أمر ليس مشكوكاً فيه. وما إن سمحت له السن بالتحلّل من ربقة معلميه حتّى هجر الأدب، وقرّر ألاّ يلتمس علماً إلاّ ما اشتملت عليه نفسه أو ما كان في كتاب العالم، كما يذكر أنّه كان مجلاً للعلوم الدينية ([25]). لقد اشتغل بالمنطق وبالرياضيات بفرعيها الجبر والهندسة، وعلى الرغم من العيوب التي تعتريها كان بها مزايا. ففكر في وجوب البحث عن منهج يحتوى، كما يقول، على مزايا تلك العلوم وخالياً من عيوبها([26]).وكما أن كثرة القوانين كثيراً ما تهيئ المعاذير للنقائص، بحيث تكون الدولة خيراً حكماً ونظاماً عندما لا يكون لديها من القوانين

24) – Woolhouse. R. S.. Descartes. Spinoza, and Leibniz. The concept of substance in the seventeenth century metaphysics. Introduction. Op.cit., p:1.

[25] - ديكارت رينيه: مقال عن المنهج، القسم الأول،ت/ عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب.ص ص74-81.

[26] - المصدر نفسه، القسم الثاني. ص ص:92-96.

إلا قليل جداً فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة، فتكون هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة. لكننا سنذكر ذلك سريعاً.

المنهج عند ديكارت: يعرف المنهج بأنّه "..مجموعة القواعد اليقينية البسيطة التي تضمن لمن يراعيها بدقة ألاّ يفترض الصدق فيما هو كاذب، وأن يصل إلى علم صحيح بكل ما يمكن العلم به.."([27]) و" هو مجموعة القواعد التي تعين الإنسان على زيادة علمه تدريجياً، والارتقاء تدريجياً، والارتقاء شيئاً فشيئاً إلى أسمى نقطة يستطيع بلوغها"([28])

و يتأسس المنهج عند ديكارت على :

الحدس: هو الإدراك الذهني المباشر لقضية بسيطة واضحة بذاتها مثال ذلك أني كائن مفكر.

الاستنباط: فهو حركة متصلة تقوم على استنتاج قضايا جديدة من قضية أولية بسيطة.

وقد وضع ديكارت أربعة قواعد فقط لاعتقاده أن قلة القواعد تساهم في دقة النتائج إذا روعيت بدقة وتتمثل هذه القواعد في:

1- قاعدة البداهة والوضوح: يقول ديكارت بصدد هذه القاعدة " ألاّ أقبل شيئاً ما على أنّه حق، ما لم أعرف يقيناً أنّه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألاّ أدخل في أحكامي إلاّ ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميّز، بحيث لا يكون لدى أي مجال لوضعه موضع الشك.

[27] -أنظر ديكارت، رينيه، القواعد لتوجيه العقل.

[28] - ديكارت رينيه: مقال عن المنهج، القسم الثاني. المصدر نفسه.

2- قاعدة التقسيم: أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها، إلى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه.

3- قاعدة التركيب: أن أسير أفكاري بنظام، بادئاً بأبسط الأمور و أسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها الأخر بالطبع.

4- وقاعدة الإحصاء: وهي أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة و المراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئاً ([29])

والخطوة الأولى التي يقضي بها المنهج هي أن نشك مؤقتاً في جميع الأفكار للبحث عن االيقين الأولي أو القضية البديهية كأساس و قاعدة للبناء الفلسفي.

الشك طريق إلى الحقيقة:

انطلق "ديكارت" من الشك الكلي (***Universal Doubt***) تحضيراً لفلسفته، فوجد أنّ الطريق مسدود بصعوبة هائلة، فالفلسفة هي محاولة بواسطة الاستدلال للوصول إلى معرفة يقينية موثوق فيها، ولذلك يجب على الباحث في الفلسفة أن ينطلق من واقعة مسلّم بها، ومن يقين تام لبناء استدلالاته حتى تصبح يقينية؛ لكن "ديكارت" اكتشف عندما بحث بالتجربة عن بعض الحقائق التي يعتقد أنّها يقينية والتي لا تكون محل شك أنّه لم يجد شيئاً منها كذلك. النظرة الأولى لموقف "ديكارت" من الشك الكلي يبدو أنّه سخيف، فمن الممكن أن نشك في الأشياء غير المرئية وغير التجريبية لكن كيف لشخص أن يشك في الأشياء التي يلمسها ويراها ويسمعها، أي كيف يشك في موضوعات العالم الخارجي؟ بدأ بالشك في الموضوعات الحسية أولاً، فقد كانت لـ"ديكارت" إجابة شبه جاهزة عن هذا السؤال. لن نكون على يقين مطلق بوجود الأشياء التي ندركها بحواسنا ذلك

[29] أنظر: ديكارت(رينيه)، مقال عن المنهج، القسم الثاني، ص ص: 97-99.

لأنّه، كما يقول ديكارت:«.. جرّبت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خدّاعة؛ ومن الحكمة أن لا نطمئنّ كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة»[30]، واحتمال أن أكون في لحظة ما غارقاً في أحلامي، ومن ثمّة لا أكون مدركاً للعالم الحقيقي على الإطلاق، و« يبدو لنا حينذاك أنّنا نحس بشدّة ونتخيل بوضوح عدداً لا يحصى من الأشياء التي ليس لها وجود في الخارج.»[31] ثمّ شك في القضايا الرياضية، فـ"ديكارت" لم يتوقف عند هذا الحد، فمن الممكن أن نشك في كل موضوع للمعرفة؛ فحتّى الحقائق الرياضية المتعلقة بـ«.. الجسم والشكل والامتداد والحركة والمكان ما هي إلاّ أوهام من أوهام نفسي»(32)، ويقدّم في " المبادئ" حججه، كما شك في وجوده، فقد يكون ذلك كلّه أشبه ما يكون بحلم.

حالة "ديكارت" هذه سرعان ما تزول عن طريق اكتشافه لحقيقة لا يمكن أن توضع موضع تساؤل، وهي أنّه كائن موجود. ولا يستطيع أن يشك في هذه القضية لأنّ الشك في ذاته يكون مستحيلاً لو لم يكن هو في ذاته(ديكارت) موجوداً ويقوم بفعل الشك. التفكير أساس الوجود هذا ما خلص إليه ديكارت" أنا أشك، إذن أنا أفكر، أنا أفكر، إذن أنا موجود" يقول ديكارت: " أنا كائن وأنا موجود" قضية صحيحة بالضرورة» (33)

30 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الأول، ت/ عثمان أمين، المطبعة الفنية الحديثة، ط4، 1969.ص ص:72- 73.
31 - ديكارت (رينيه) ، مبادئ الفلسفة، ت/ عثمان أمين،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.، القسم الأول، ص: 54.
32 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني، مصدر سابق، ص :94.
33 - المصدر نفسه، التأمل الثاني، ف: 4-5. ص : 95.